قراءة نقدية لكتاب أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف

أ.د. خير الدين شترة / قسم التاريخ– جامعة المسيلة

تمهيد:

لم تكن النهضة الجزائرية الحديثة التي أعلنت عن نفسها بقوة بعد العقد الثالث من القرن العشرين وليدة لحظتها بل كانت امتدادًا لجهود حثيثة وأعمال مخلصة دؤوبة لكنها صامتة، لثلة من علماء الجزائر الأبرار الذين أبى عليهم ضميرهم الديني والوطني أن يتخلوا عن واجبهم الرسالي في تنوير الأذهان وبثَّ العلم والوعي على الرغم من الضغوط الاستعمارية الخانقة، وتردي الواقع الجزائري إلى أسفل الدركات، وعربدت الساسة الفرنسيين الذين كانوا على يقين من أنهم قاب قوسين أو أدنى من إلحاق الجزائري إلحاقًا كلياً وأبدياً بفرنسا. وأبو القاسم الحفناوي واحد من هذه الشموع التي كانت تُضيء في صبر وصمت لترسل أشعتها الخافتة وسط طبقات الظلام الدامس، وكتابه "تعريف الخلف برجال السلف" بادرة جريئة، عبَّر من خلالها عن الهاجس الذي كان يسكن الفئة الجزائرية القليلة ذات الثقافة العربية الإسلامية أمام تيار الفرنسة الطاغي يقابله جهل سادر وغفلة تامة لدى الأهالي. هذه الدراسة ترمي إلى التعريف بهذا الكتاب "تعريف الخلف برجال السلف" من جوانبه الحضارية والتاريخية والأدبية.

ويمكن القول أن الكتابة التاريخية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي كانت تُشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطني ضد العدو الفرنسي المستعمر وضد من شوّه ماضي الجزائر، وذلك لأنها كانت ترمي إلى شيء هام وهو الوجود القومي والنزعة الوطنية، وقد أكمل الرسالة من بعد هؤلاء السابقين (الحفناوي وأضرابه) عدد آخر من الجزائريين فكان من بينهم الشيخ مبارك الميلي والمدني والجيلالي، إن هؤلاء الرواد حاولوا حفظ تاريخ الأمة وصيانة هويتها الإسلامية والعربية رغم ضعف الإمكانيات ورغم طغيان الدعاية الاستعمارية المضادة لهذا الاتجاه.

1. نسبة الكتاب إلى صاحبه:

أبو القاسم محمد الحفناوي من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن 19م والنصف الأول من القرن 20م، درس في عدّة أماكن وتولى التدريس الذي كان معظمه بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة ابتداءً من سنة 1314هـ/1897م، كما تولى مهمة الإفتاء المالكي بنفس المدينة ابتداءً من سنة 1344هـ/1925م.وقد عُرف بأثر هام اشتهر شهرة واسعة هو كتابه تعريف الخلف برجال السلف الذي كان من الجهود الجيّدة، أفاد الدارسين والباحثين ولا يزال من المراجع الهامة في ثقافتنا الوطنية العربية والإسلامية.

صدرت الطبعة الأولى من الجزء الأول في حياة المؤلف عن مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر سنة 1324هـ /1906م، وعن نفس المطبعة صدر الجزء الثاني عام1326هـ/1908م كما طُبع الكتاب في تونس بمكتبة الشيخ خير الدين في حدود سنة 1339هـ/1920م، وقد وقع تصويره في السبعينيات في بيروت دون تنقيح أو إضافة، ثم صدر الكتاب بطبعة حديثة تضمنت تصحيحات وتعليقات سنة 1392هـ/1982م عن مؤسسة الرسالة في بيروت بالتعاون مع المكتبة العتيقة في تونس، وصدرت الطبعة الثانية عنهما أكثر تنقيحًا من الأولى سنة

1405هـ/1985م، ثم صدر الكتاب من جديد ولكن هذه المرة في دار نشر جزائرية هي دار موفم سنة 1428هـ/2007م، مع مقدمة قصيرة للكتاب وصاحبه، ولا أدري على أي النسخ تم الاعتماد في طبع الكتاب من جديد هل على النسخ الورقية الأصلية أم على النسخ المصوّرة.

وقد ورد في رسالة من قطاف بن أحمد بن عثمان إلى الشيخ الحفناوي مؤرخة في 14 سبتمبر سنة 1935م ذكراً لسعر الكتاب خلال هذه الفترة حيث قال له: «نعم سيدي إنني اشتريت كتاب القسم الثاني[من] كتاب تعريف الخلف برجال السلف من الجزائر من تأليفك بسبعة دورو»[1]. أما عن نسبة الكتاب إلى صاحبه فقد أجمع كل الذين ترجموا للشيخ الحفناوي وذكروا مؤلفاته في نسبة هذا الكتاب إلى الشيخ ولم يختلفوا في اسمه، ومن خلال صفحة الواجهة لنسخة الكتاب المطبوع يتضح جلياً أنه يُنسب إلى «الشيخ أبي القاسم الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول عامله الله بلطفه(آمين)».

كما ورد في الصفحة الثامنة منه العبارة التالية «...وإذا شرحت عذري للمطلعين الكرام فليكن اسم هذا المجموع بهذا اللفظ "تعريف الخلف برجال السلف"»[2]. كما أن جملة الوثائق والرسائل والنشرات والدوريات كلها تثبت نسبة الكتاب بهذه الصيغة إلى الشيخ.. ومن خلال ما سبق، لا يمكنني إلا أن أعتبر وبناءً على ما ذكرته المصادر والمراجع أن ما صرّح به الشيخ في مقدمة وخاتمة الكتاب بالإضافة إلى ما تضمنته بعض المقتطفات في ثنايا الكتاب دليلاً كافيًا على أن الكتاب من تأليف الشيخ الحفناوي.

إن الصيغة العامة للعنوان توحي للقارئ بأن المؤلف إنما يهدف من خلاله إلى الترجمة لمشاهير أهل العلم والفكر والثقافة الذين ذاع صيتهم في العهود الماضية، وكان لهم أثر واضح في مجتمعاتهم، وهو عنوان عام لا يُحدد الفترة الزمنية التي سيُغطيها، ولا المرحلة التاريخية التي سيتم التركيز على أعلامها كما أنه — في الوقت ذاته– لا يشير إلى منطقة جغرافية محددة بعينها، حيث لا نفهم منه؛ من هم السلف الذين سيترجم لهم، وإلى أي بلاد ينتمون، وهي أمور قد تنبّه إليها من سبقه، كما هو الحال بالنسبة لابن مريم المديوني الذي أوضح في كتابه «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» أن تراجمه ستشمل الشخصيات العلمية والدينية التي نبغت واشتهرت بتلمسان، وأبي العباس الغبريني الذي كان أكثر دقة عندما بيّن بجلاء في كتابه «عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» أنه سيترجم للعلماء الذين عاشوا خلال القرن السابع الهجري، وحدّد أنه سيخص منهم أولئك الذين عرفتهم منطقة بجاية فقط.

وفيما يتعلق بمتغيرات العنوان يمكن التسجيل بأن الحفناوي صاغ عنوانه على طريقة القدماء الذين يعمدون في تأليفاتهم إلى ربط موضوع الكتاب بعبارة تناسبه في الإيقاع الموسيقي، ليأتي مسجوعاً خفيفاً على اللسان، سريع الحفظ في الأذهان على منوال طائفة كبيرة من المؤلفات القديمة مثل «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» للمقَّري و«بروق المباسم في ترجمة محمد بن أبي القاسم» لابن عزوز، و«الياقوتة المصونة في صلحاء بونة» لأحمد بن قاسم البوني وغيرها[3]، وهذا بدل أن تُعبِّر هذه العناوين ضمن متغيراتها عن إشكالية الموضوع وأبعاده الموضوعية

والزمنية والتقنية، والطريقة التي اعتمدها الحفناوي في صياغة العنوان تجسّد مرحلة من مراحل الانحطاط الأدبي والفكري في العالم الإسلامي أين تجسّدت غلبة الشكلية والصياغة السجعية المثقلة بالمجاملات في الألقاب والأسماء في مقدماتها وبالذاتية والشخصانية في مضمونها وبالروحانية في خواتمها.

2. دوافع تأليف الكتاب:

لقد كانت بداية تأليفه للكتاب ترجع أولاً إلى ارتباطه بالتراث وكتب الطبقات التي قرأها وهو طالب في مرحلة التتلمذ ثم أخذ منها وهو موظف سواءً لنفسه كمحرر في "المبشر" أو للمستعربين الفرنسيين الذي كان يساعدهم على فهم التراث العربي الإسلامي والترجمة منه ما تقتضيه المصالح الفرنسية. وتأكد احتضانه لفكرة الكتاب منذ بدأ في مساعدة ديبون وكوبولاني في كتابهما عن الطرق الصوفية، فقد كان مضطرًا إلى الرجوع إلى المصادر العربية والإسلامية القديمة والحديثة لاستخراج التراجم والأخبار والمعارف العامة للجريدة والكتاب، وربما لم يخطر في باله أول الأمر وضع قاموس لعلماء الجزائر وصلحائها كما فعل بعد ذلك، ولكنه بدون شك جمع مواد غزيرة من قراءاته الكثيرة وصنّفها واحتفظ بها لوقت الحاجة وقد حان وقتها في عهد "جونار"، كما كان الحفناوي قد تعلَّم الكثير –كما قال– عن شيخه "آرنو" الذي كان رئيسًا لتحرير المبشر[4].

وكان ديبون وكوبولاني–كما مرَّ معنا– قد اعترفا بفضله في مساعدتهما على توثيق مؤلفهما حول الطرق الصوفية[5]، وقد عرفنا صلته بكل من آرنو، وميرانت، ولوسياني، ويذهب سعد الدين بن أبي شنب إلى أن الحفناوي كان يجمع خلال ذلك البطاقات عن كل عالم، وكان يستعين ببعض المعاصرين من موظفين سامين، ومن مرابطين وعلماء دين وأصدقاء، ثم أن السلطات الفرنسية قد سهّلت له الاتصال بالمغرب الأقصى وخزائنه، فحصل عن طريق الاستكتاب على تراجم، وكانت هذه أحيانًا تنتزع انتزاعاً من أصولها المخطوطة بدل أن تُنسخ، كما شاهد ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله بنفسه عن دراسته لمخطوطة أبوراس في المغرب[6].

كما ساعدته السلطات الفرنسية على نشر الكتاب نفسه على حسابها يوم أصبح جاهزًا، وكان ذلك في عهد الحاكم العام "شارل جونار"، الذي نوّه به الحفناوي في مقدمة كتابه، وأورد أبياته الشهيرة التي نُقشت عند مدخل المدرسة الثعالبية، فقد قال عن "جونار": «أنه اهتم بمسلمي الجزائر، وأحيا آثارهم وحاول أخذهم في طريق التقدم العصري لكي تجمع الجزائر بين عصر الشرق القديم وبحر الغرب الجديد»[7]، وكذلك شكر الحفناوي (الحكومة) على طبع «ما يُيسر من أبناء وطننا وديننا من معارف الاعتبار ومآثر الاختبار»[8].ويبدو أن تزكية الوسط الثقافي الفرنسي بالعاصمة من رجال المدرسة الثعالبية ومحرري جريدة "المبشر" من مستعربين وفرنسيين للنشاط الفكري والصحفي للحفناوي قد دفع هذا الأخير إلى إصدار هذا السَفَر، خصوصًا أنه لم يُقحم نفسه في دائرة القضايا التاريخية والسياسية التي تمس بفرنسا وطبيعة وجودها بالجزائر، وهو ما زاد من حظوظ إصدار المجلد الثاني من هذا العمل.

لقد حاول الحفناوي من خلال هذا الكتاب إبراز المساهمة الجيّدة لعلماء الجزائر ومثقفيها وبعض زملائهم في المغرب العربي والسودان الغربي ممن كانت لهم مساهماتهم الثقافية في أمتهم، فجسّدوا بذلك حضورهم الحضاري في المسيرة التاريخية للثقافة العربية الإسلامية، تجسَّد ذلك في(419 شخصية) عرّف بها الحفناوي في كتابه من إبراز مكانة الجزائر الثقافية ودور رجالها عبر القرون فشمل ذلك كل ما استطاع الوصول إليه منذ القرون الأولى للحضارة العربية الإسلامية حتى أيامه.

إلى جانب كل هذه الدوافع المباشرة، يمكننا أن نضيف الرغبة الذاتية للمؤلف؛ فالحفناوي كان كثير الاطلاع، واسع الحفظ، دفعه حبه للعلم لأن يغادر مسقط رأسه قصد الاستقرار في مدينة كبيرة حتى يتسنى له العثور على كنوز العلم وأمهات المصادر، ويلتقي العلماء الذين بإمكانهم أن يوسعوا مداركه ويفتحون أمامه أبوابًا لم يلجها من قبل، فوقع اختياره على الجزائر العاصمة، كما كان مترجمًا شغوفاً بالتأليف والتدوين، ويبدو أن اختياره لهذا النوع من الكتابة أي الترجمة للمشاهير من العلماء والصالحين قد جاء ثمرةً لإعجابه الكبير بكتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، والذي جمع فيه مؤلفه أعدادًا هامة من أسماء المؤلفات، وترجم أيضًا لطائفة كبيرة من أصحابها، حيث ذكر أنه قرأه مرات عديدة بشغف زائد[9]، لما فيه من إشارات بليغة إلى اتساع ميدان العلوم، وهمّة العلماء في تحصيلها، وقوة عزائمهم في التأليف والتدوين.

3. محتوى الكتاب «الوصف العام»:

لقد اشتهر العلماء المسلمون بكتابة التراجم حتى برعوا فيها دون غيرهم بشهادة الباحثين الأجانب، وكانوا يعدون هذا الفرع من المعرفة في باب التاريخ، رغم أن العناية بالتراجم أو بالرجال كما كانوا يُعبرون، انطلقت من العناية بأهل الحديث ومعرفة الصادق من السفيه، وباب التراجم باب واسع في حد ذاته إذ تناوله الكتّاب من حيث الاختصاص كالفقهاء والقضاة والشعراء...إلخ، أو من حيث الزمان فيذكرون رجال قرن معين...إلخ، وقد يتناولون الأعيان عبر العصور، أو علماء قطر بعينه...إلخ. فالتراجم قد تكون أيضًا شاملة للزمان مع المكان، وقد تكون محلية ومحددة في الزمان والمكان[10]. ويبدو أن كتاب الحفناوي في الترجمة هي طريقة الكتّاب الأقدَمين بلا شك، فهي عبارة عن سرد مع وصف لحياة المترجَم له، يعمد فيها كثيراً إلى السجع الممل أحياناً، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمي للبحث التاريخي، فهو يأخذ الأخبار من كتب سابقيه، وينقل تارةً حرفيًا ويقتبس منها أخرى دون نقد أو تعليق، أغلب التراجم التي جاء بها كانت منقولة نقلاً حرفياً. ويمكن القول أنه ذهب مذهب بعض كتّاب السيَر الأولين الذين كانوا يركزون اهتمامهم على نقل الأخبار فقط[11]، وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة والأغراض التاريخية في عصرنا.

كما حرِص الحفناوي على ذكر مصادره حرصاً شديداً، وهو شيء أساسي في كتابة التراجم، وكان يرى أن صحة الخبر وكذبه تقع على كاهل صاحب المصدر، وهذا الموقف شبيه بموقف العلماء العرب في العصور الوسطى، أما إذا شك في الرواية فإنه كان يستعمل اصطلاح "الله أعلم" وهو تعبير يدل على التحفظ أو عدم الجزم بالرأي[12].

لقد رأى الحفناوي أن يُقسم سفره هذا إلى قسمين: القسم الأول خصصه لترجمة الأعلام الذين وجد أسمائهم (50 شخصية) منقوشة في قباب المدرسة الثعالبية، وأضاف إليهم علماً آخر. أما القسم الثاني فقد خصصه لتراجم من علماء القطر الجزائري، ومن الأقطار الأخرى كالسودان الغربي والمغرب وتونس والأندلس، وبلغ عددهم 369 ترجمة تتفاوت بين الإمعان في ذكر سيرهم وأعمالهم وبين الاختصار والتجاوز والسطحية، وقد شملت تراجمه كل المشاهير سواء أكانوا علماء أم فقهاء أم أدباء أم قضاة أم صوفية وشيوخ زوايا وحتى بعض السياسيين، ولم يكتف بتراجم القدماء بل ترجم أيضاً للجيل الذي تلاه ولبعض المعاصرين له..

الجزء الأول: تم طبعه سنة 1324هـ/1906م. جاء في صفحة الواجهة ما يلي من الأعلى إلى الأسفل. ولاية عموم الجزائر، ثم هلال وعليه نجمة (ترمز لهوية الكتاب الإسلامية)، ثم عنوان الكتاب (تعريف الخلف برجال السلف)، ثم ذكر لصاحب الكتاب مع نسبه (أبي القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول عامله الله بلطفه آمين)، ثم في أسفل الصفحة جاءت سنة نشر الكتاب(سنة 1324هـ-1906م)، ثم مكان طبعه(طبع بمطبعة بيير فونتانة الشرقية في الجزائر)، ثم تلتها صورة أخرى لصفحة الواجهة (بورق عادي) تتضمن نفس المعلومات المدوّنة في النسخة الورقية الصلبة السابقة (لونها أحمر مائل إلى الاصفرار).

أ- **المقدمة:** ثم جاءت صفحة المقدمة أو التمهيد أو المدخل بالرسم التالي: مبنى هندسي مزيّن بشموع متلألأة، عليه قباب يعلوها هلال ونجمة وكأنه يرمز إلى الشكل الهندسي للمدرسة الثعالبية، تضمن بداخله العبارة التالية: بسم الله الرحمان الرحيم، في أعلاها: الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في أدنى هذا الرسم. ثم استهل مقدمته بعبارة الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (الحمد لله على نواله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله؛ أما بعد)، وقد قسم مقدمته إلى ثمانية أقسام (06 صفحات).

- **الديباجة:** وتضمنت: دور القطر الجزائري في طلب العلم ونشره، وإخراج علماء نافسوا أقرانهم في الأقطار الأخرى إلى عالم الجيل الحاضر كي يقتفوا آثارهم ويقتدوا بقدوتهم «فالظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد...فلهجت بذكرهم أقلامه على ألسنة خلقه».

- نكران الأجيال اللاحقة(الخلف) لجهود العلماء الجزائريين السابقين رغم نبوغهم وتفوقهم وكثرة تآليفهم «هذه أسماؤهم وتراجمهم..مشتهرة فيهما اشتهار مؤلفيها عند كل طالب علم وفي كل كتاب».

- **دوافع التأليف:** وتضمنت:

- دور الوالي العام "جونار" في إحياء التراث الإسلامي بالجزائر وإمعانه في التعاطف مع مسلمي الجزائر«ولما آلت ولاية القطر الجزائري... ومدار كل مدينة في العالم».

- دور الثقافة الأوروبية والوعي الغربي الحديث المهتم بإحياء تراث أسلافه واستنباط معارفهم في النهوض والارتقاء. فكأنه يقول أنه استمد من خبراتهم وتجاربهم كي يساهم في النهوض بالأمة الجزائرية «ولم يصر الغرب إلى ما صار إليه في التاريخ الجديد إلا بالتلمذة لأهل العلم... فضلاً عن إخضاع الصياصي، والأخذ بجميع النواصي».

– دور المدرسة الثعالبية في تنوير الأمة الجزائرية، ليبدأ بعدها في وصفها، مع التركيز على انشغال القائمين على بنائها وعلى إخراجها وفق الطابع الأندلسي الإسلامي. كما أورد الأبيات الشعرية التي هي من تأليفه والموجودة عند مدخل المدرسة، ثم تحدَّث عن ترتيب البيوت وتفصيل القاعات ونقش الجدران، والقباب الخمسة التي دوّن فيها أسماء 50 عَلَما جزائرياً وهم المترجم لهم في الجزء الأول«فإذا دخلها وجال في أكنافها..وترتيب الأسماء في القباب سنوي، وترتيبها هنا هجائي وهي أسماء المترجمين في القسم الأول».

●**مصادر ومراجع الكتاب**: حيث ذكر أهم المصادر والمراجع المعتمدة بدون تصنيف مسبق أو ترتيبي خضع لرؤية بيبليوغرافية «في القسم الأول من هذا الكتاب الجامع لما تيسّر نقله.. وسلوة الأنفاس».

●**الشكر**: حيث تقدم بالشكر للحكومة العامة في الجزائر على دعمها، كما أسداه إلى كل من ساعده في هذا التأليف، وذكر بعضاً منهم مرفوقاً بمن أعانه من كتب ووثائق «وشكرا لحكومتنا الجزائرية... وعن جميع عباد الله الصالحين».

●**خطة الكتاب**: «هذا الكتاب قسمان: أولهما في تراجم العلماء المكتوبة أسماؤهم في المدرسة الثعالبية، وثانيهما: في تراجم غيرهم من علماء البرّ الجزائري، وما يليه من الأقطار كالسودان ونحوه..».

●**منهج الكتاب**: وقد وضعه في صيغة تنبيه إلى القارئ«أذكر تحت كل اسم عالم.ودعتني إليه الضرورة».

●**نقد المصادر السابقة**:«وقد اجتنب النقل من «البستان» و«عنوان الدراية» لما في نسختيهما لديّ..ويا ليتهم يُتحفون عالم العلم بالذّخائر المكنونة في الخزائن المغربية لإحيائها وإحياء أهلها ».

ب. مضمون الجزء الأول:

من ص10 إلى ص 201، تناول الحفناوي بالترجمة، تراجم العلماء المدوّنة أسماؤهم في قباب المدرسة الثعالبية، وكان الحصر محدوداً بخمسين(50) عالماً، لكن إذا ركزنا في تعدادهم نجدهم واحد وخمسون عالماً.. وهذا بعد إضافة أحدهم حيث لم يتسنى لي التدقيق في القباب حتى أعثر على اسم العالم الذي أضافه وهو ليس مدوّن في قباب المدرسة، وللأسف نجد كل الدراسات التي تناولت بالبحث أو التعليق على كتاب الحفناوي لم تنتبه إلى هذا الخطأ وبنت موقفها على ما أورده الحفناوي في مقدمته.

ومن محتويات المضمون أنه كان يذكر في معظم من ترجم لهم المصدر المأخوذ منه تحت اسم المترجم له مباشرةً مرفوقاً بكلمة(من) أو (عن)، لكن في كثير من الأحيان يُدعم ترجمته بمصادر أخرى يشير إليها في ثنايا الترجمة مرفوقة بكلمة (قال) أو (يقول) وفي حالتين فقط من (51) عالماً يذكر اسم العلَم مرفقًا بعبارة (لم أطلع عليه) أو (لم أقف على ترجمته). ويحاول بعدها الحفناوي جاهداً أن يأتي باسمه كاملاً بما يعرف، أو بأثر من آثاره (كراماته، أو قصيدة شعرية منسوبة إليه، أو قيلت في حقه، أو ذكر إحدى مآثره وآثاره، أو ما قيل فيه). ما يمكن تسجيله أيضاً فيما يتعلق بمحتوى الجزء الأول هو أن الحفناوي قد اقتصر على مصادر معدودة، رغم أنه كان بإمكانه التوسع في غيرها بهدف التثبت والدقة، وهذه المصادر المعدودة على قلتها هي في نظره مصادر لا يرقى إليها

الشك أو الزلل، مما دعاه إلى التجاوز عمداً على المصادر الأخرى التي يملكها كونه اشتم فيها الخطأ وعدم الدقة أو المبالغة في الوصف أو رواج التصحيف في كثير من صفحاتها.

وفي ترجمته لكل الأعلام الذين قام بترتيبهم ترتيبا هجائياً يختم عادة اسم الشهرة لديه بإلحاق موطنه الأصلي أو مسقط رأسه بلقبه على شاكلة: (المشدّالي أو الغرناطي أو التنسي أو المازوني أو التادلسي) وأحيانًا أخرى يلحق باسمه الأول مذهبه أو كنيته التي اشتهر بها فقط على شاكلة: (الثعالبي، أو الوغليسي أو المنقلاتي أو الشاوي...) وفي مرات قليلة ينسبه صراحة إلى مذهبه والتيار الذي ينتمي إليه على منوال: (التوحيدي..) والأمر نفسه على مضمون الجزء الثاني.

عمومًا فإن عمله في القسم الأول قام على الواقعية والشمولية في آن واحد، حيث اعتمد على أصل الرواية وصحة السند أكثر من الرواية نفسها، وهذه كانت عادة مؤرخي العصور الأولى من أتباع مدرسة المدينة ومدرسة الشام الذين كان يهمهم صحة الراوي (السند) أكثر من صحة الرواية، التي هي في العادة لا يعقّب عليها عندهم رغم ما تحتويه من مبالغات تتنافى مع العقل والمنطق والشرع حتى!!

ت – الخاتمة: كما تضمَّن القسم الأول أيضًا بعد ختام تراجم الأعلام الواردة فيه ثبتًا للمحتويات أدرج فيه أسماء الأعلام المرتبة هجائياً مع أرقام صفحاتها، ثم تلته قائمة للكلمات والجمل الواردة خطأً مع صوابها.

1. **الجزء الثاني:** تم طبعه سنة 1326هـ/1908م.

وتضمن 624 صفحة، بما فيها مقدمة العمل وخاتمته، وفهرس المحتويات مع قائمة بالكلمات والجمل الواردة خطأً مع صوابها. جاءت صفحة الواجهة بنفس الشكل والصيغة التي كتبت بها واجهة الجزء الأول مع تعديل في تسمية الجزء وسنة النشر.

أ– المقدمة:وقسّمها إلى عنصرين هما:

- **الديباجة:**وجاءت بنفس صيغة ديباجة الجزء الأول تقريباً حيث جاء فيها: «الحمد لله وحده، بسم الله الرحمن الرحيم، الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين».
- **مصادر ومراجع الكتاب:** كما ذكر الحفناوي في مقدمة هذا الجزء المصادر والمراجع الجديدة، بالإضافة إلى ما سبق، كما نبّه إلى تغيير طفيف في تقنية الإحالة، ذلك أنه وعِوَض ذكر المصدر المنقول منه في بداية الترجمة فإنه آثر ذكره هذه المرة في آخر الترجمة. كما نبّه أيضًا فيما يتعلق بالشق التقني لمصادره، أنه سيعتمد أكثر وبخلاف القسم الأول على المراسلات والاتصال المباشر، كون أغلب المترجم لهم في القسم الثاني من معاصريه أو من القريبين لعصره، «وبعد فلماّ كان القسم الأول... الخاص بالمقيَّدين من علماء البرّ الجزائري في المدرسة الثعالبية... قياماً بوظيفة القلم الذي علّم الله به الإنسان ما لم يعلم، ولم ينخدعوا لخنّاس الجِنّة والناس فأذكره منسوباً إليهم».

ب– مضمون الجزء الثاني:

تضمن القسم الثاني ذكراً لـ369 علَماً، خصوصية هذا القسم هو أنه لم يتقيّد كما القسم السابق بعلماء البرّ الجزائري فقط بل أضاف إليهم جملة من علماء الأقطار الأخرى سواءً بالمولد والنشأة أو بالإنتاج والعلاقات والتكوين كالمغرب والأندلس والسودان الغربي. والملاحظ في تراجم هذا القسم هو أنه ليس كسابقه حيث أمعن في إيراد مسقط الرأس عقب ذكر الاسم الأول للمترجم له على شاكلة: القسنطيني، البجائي، التلمساني، التازي، الزواوي، الوهراني، الجزائري، الندرومي، البسكري، العباسي الحنيفي، القلعي، المستغانمي، التنبكتي، الحرشاوي...

ومن المميّزات الأخرى التي تكررت كثيراً في هذا القسم هو ذكر الآيات والأدعية المأثورة خصوصًا منها المتأثرة بالأوراد الصوفية في آخر كل ترجمة فمن الآيات مثلاً: (ذَلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيه مَنْ يَشَاء) ومن الأدعية المأثورة «رزقنا الله بركة أوليائه وجعلنا من خواص الأصفياء بفضله»، «أصلحه الله وكان له ولذريته ولياً ونصيراً آمين، آمين، آمين والحمد لله رب العالمين» «توفي رحمه الله وطيّب ثراه وأنالنا من الجنة بركته ورضاه»...

ت– الخاتمة: وتضمنت قسمان:

- **دعاء الختم:** وكان من عادة مؤلفي العصور السابقة أنه عندما ينتهي من عمل تأليفي تكون آخر أسطر هذا العمل دعاءً له ولنسله ولعامة المسلمين وخاصتهم، وهو ما فعله الحفناوي في خاتمة القسم الثاني، حيث ختم عمله بختم سيدي أبي عمران موسى بن عيسى المازوني، تبركاً به وتوسلاً بدعائه المستجاب إن شاء الله، «وهذا آخر ما قصدنا إليه يعني من الرجال، نفعنا الله بجميعهم...وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

تحديد تاريخ نهاية العمل:«سنة 1326هـ/1908م، من هجرة مولانا محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأزكى التسليم». كما تضمن القسم الثاني أيضاً بعد ختام تراجم الأعلام الوارد فيه، ثبتاً للمحتويات أدرج فيه أسماء الأعلام المرتبة هجائياً مع أرقام صفحاتها، ثم تلته قائمة بالكلمات والجمل الواردة خطئًا في القسم الثاني مرفقة بالصفحة والسطر مع تحديد صوابها.

وبهذا يكون الحفناوي قد ذهب مذهب المؤرخين الأوائل الذين كانوا يجعلون أكبر همّهم هو نقل الأخبار فقط، ولهذا نجده لا يراعي قواعد البحث الحديثة، ولا أغراض التاريخ المعروفة، فاقتصر على جمع ما كان مشتتًا منشوراً في كتب تاريخية عديدة يصعب في غالب الأحيان على القراء الوصول إليها، فلو لم تكن للحفناوي سوى هذه المزية لاستحق الثناء عليها، ولكنه أضاف إلى ذلك عدة معلومات عن عائلته وعن مؤسسي الزوايا ومشايخهم بفوائد لا مثيل لها، إذا كان تقييد الأخبار في زمانه بضاعة نادرة، فبفضله بلغتنا أخبار استخرجها من الوثائق العائلية التي أطلعه عليها بعض الأدباء من أصدقائه[13]. فعلى الرغم من جهله أساليب البحث العلمي فقد أنقذ لنا الحفناوي شيئاً غير قليل مما يتعلق بتاريخ الثقافة العربية بالجزائر في القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، فممّا

لاشك فيه أن أفضل عمل قام به الحفناوي بل أعظم مزاياه على العلم كما قال بن أبي شنب هو «تقييده تراجم رجال عرفهم طيلة حياته»[14].

4. مصادر الكتاب:

لقد اجتهد الحفناوي في جمع قائمة طويلة من مصادر التراث المهمة لإعداد تراجمه، واختار منها تلك التي خلَّدت آثار علماء الجزائر، وسجَّلت حياتهم وحفظت تواريخ ميلادهم ووفاتهم، ورسمت لنا صورة عن مختلف العصور التي عاشوا فيها، وما تميزت به في النواحي العلمية والاقتصادية والسياسية، وقد أشار في مقدمته إلى أنه بذل جهودًا كبيرة في جمع هذه المصادر، وسعى إلى الحصول عليها بشتى الطرق، مشيرًا إلى ما صادفه من صعوبات أثناء ذلك، وخاصة من أصحاب المخطوطات الذين رفضوا إمداده بنسخ منها لاعتزازهم بها وخوفهم من ضياعها. وأهم المصادر التي استقى منها الحفناوي مادة كتابه وقد رتبناها بحسب حجم وتعداد ورودها في كتابه نذكر: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا التنبكتي(ت1036هـ-1926م) الذي يُعد مرجعًا هامًا جدًا في التاريخ العام لشمال وغرب إفريقيا والأندلس ودراسة قيّمة للحالة الفكرية والاجتماعية والسياسية للقرن العاشر والحادي عشر الهجري[15]. لذلك كان اعتماده عليه كبيرًا.

كما استقى معلومات جمّة من كتاب «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لابن مريم المديوني، والذي ترجَّم فيه لمائة واثنين وثمانين عالماً ووليًا ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها، بالإضافة إلى كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية» لأبي العباس الغبريني(ت714هـ-1312م)، الذي يضم تراجم مئة وأربعين من العلماء والمؤرخين والأدباء والشعراء من مشاهير أعلام الجزائر وتونس والمغرب والأندلس[16]، .. وعليه يمكن ترتيب مصادره التي اعتمد عليها في تأليف كتابه إلى أربعة أنواع هي:

أ- الكتب المطبوعة والمخطوطة: وهي التي حاز عليها اقتناءً أو إعارة، ومن مصادره المطبوعة والمخطوطة في القسم الأول نذكر: أحمد بابا التنبكتي، وكتابيه: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»، والجبرتي وكتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». والحضرمي في «مشيخته»، وحلولو، في «شرح المختصر». وابن الخطيب أبي العباس بن حسن بن علي و«كتاب الوفيات». وابن خلدون، «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر». وابن خلدون ابن زكرياء يحي، «بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد». وابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، «فوات الوفيات». وابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وابن صَعد التلمساني، في كتابيه،«النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب». و« روضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين». والعَبدري التونسي، «الإكليل»..... ومن مصادر الجزء الثاني (بالإضافة إلى ما اعتمد عليه في القسم الأول): بن أبي حجلة أحمد التلمساني، «مغناطيس الدّر النفيس». وابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل في كتابيه: «الفهرسة». و« روضة النسرين في دولة بني مرين». والأمير عبد القادر،

«ذكرى العاقل وتنبيه الغافل». وبن عمار الجزائري أبو العباس سيدي أحمد، «نخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب». والبقي أبو جعفر، «مختصر الإحاطة». وبيرم الخامس محمد بن مصطفى، «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار».....[17].

ب. **المراسلات:** استعمل الحفناوي أسلوب المراسلة أيضًا للاستفسار عن مشاهير المناطق البعيدة التي لم يتمكن من زيارتها، حتى يثبت قائمة علمائها وفقهائها وأدبائها في كتابه.. وكانت صيغة الرسالة عامة وليست موجهة بشكل خاص من أجل ترجمة علم خاص ومن أمثلة مراسلاته ما ورد عليه من رسائل من مفتي مستغانم الذي قدَّم له ترجمة معزوز البحري المستغانمي[18]، ورسائل قاضي تلمسان آنذاك أبو مدين شعيب بن علي بن عبد الله الذي زوده بكتاب «عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس» وبعث إليه بتراجم لعدة علماء[19]..

ت. **الاتصالات الشخصية الخاصة:** واعتمد الحفناوي على هذا النوع من المصادر خصوصًا عندما كان يقع في ترجمة غامضة أو مشكلة طارئة، فكان المقربين منه أو من يعرفهم عن قرب يفيده بها، وفي الغالب استعمل هذا النوع في ترجمة أفراد عائلته: كجده إبراهيم الغول وأخوه المدني ووالده بن عروس، أو أيضًا منطقته كعبد الرحمان الديسي والمازري والصديق الديسي. وقد كانت هذه الاتصالات إما بالمراسلة العادية أو بالمقابلة الشخصية.

ث. **رصيده المعرفي واجتهاداته:**

وقد اعتمد أيضًا على رصيده المعرفي واجتهاداته الخاصة عندما يعْدم المعلومة في المصادر السابقة.. وقد ذكر الحفناوي أنه وجد صعوبات جمّة في الحصول عليها قائلاً: «ولم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مضانه ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيلة ووسيلة»[20]. ومن التراجم التي ذكرها بالاسم فقط، ثم أعمل الاجتهاد من ذاكراته في ترجمتها لانعدام المصادر المكتوبة والشفوية عنها أثناء تحريره للكتاب: عبد الرحمان الأخضري، محمد بن أحمد بن مريم المديوني، وعلي بن أحمد الشريف بن مالك الجزائري، هذا الأخير الذي اعتمد له على قصيدته التي يحفظها. ورغم كل هذه المصادر النفيسة والمراجع النادرة والمحاولات المستميتة في جمعها من مضانها يأتي في آخر مقدمته ليبرر عجزه عن الإتيان بعمل كامل ومن ثم الإحاطة بكل التراجم ليقول: «ولم أعثر على غير هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مضانه ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيلة ووسيلة؛ لأن المستحوذين عليها يفضلون بقاءها ذخيرة للأرَضَة على إفادة طالبيها بها واستفادتهم منها، ولا يبالون بما وراء ذلك، زاعمين أنهم باستعارتها فقدوا منها كتباً نفيسة عزيزة الوجود، نسأل الله توفيقنا وإياهم لما فيه رضاه، لهذا السبب لم أقف على تراجم علماء أشاهر كالرّماصي والأخضري وغيرهما، ولا يسعني تجاوزهم فأذكرهم بما أعلمه، وإن قلَّ فعذراً يا أهل الإطلاع وطول الباع، ....»[21].

5. منهج الحفناوي في تأليف الكتاب:

يقع الكتاب في مجلد يضم قسمين اثنين يختلفان من حيث الحجم، أولهما خاص بتراجم العلماء الموجودة أسمائهم في المدرسة الثعالبية التي تأسست سنة 1322هـ/1904م وهم خمسون شخصية مع إضافة علم آخر على ما ذكرنا سابقًا في المحتوى غطى التعريف بها في مائتي صفحة، أما القسم الثاني فيضم ما عداهم من علماء البر الجزائري وما يليه من الأقطار الأخرى كتونس والمغرب والأندلس والسودان الغربي. وقد تضمّن هذا القسم التعريف بتسع وستون وثلاث مئة شخصية، ورد التعريف بهم في نحو ست مئة صفحة، ذات ترقيم منفصل عن الترقيم في القسم الأول.

ولا يعثر الدارس على السبب الوجيه الذي حدا بالمؤلف إلى تقسيم كتابه على هذا الشكل سوى حرصه على أن يُفرد العلماء الذين وجد قائمتهم في قباب المدرسة الثعالبية بقسم خاص، ويخصص باقي الكتاب للشخصيات التي اجتهد بنفسه في جمعها وترتيبها، لأن التقسيم على الشكل الذي لجأ إليه المؤلف لا يخضع لأي معيار زمني أو جغرافي ولا يستند إلى أي طريقة منهجية في الترتيب. ويمكننا تسجيل بعض الملاحظات والخصائص التي يتسم بها منهج المؤلف في إخراج الكتاب:

- **ترتيب الأسماء:** أول ما يُلفت النظر أن الأسماء موضوع التعريف لم تُرتب ترتيباً علمياً دقيقاً، فلم يُرتب الأعلام حسب العصور أو الأماكن، حتى أنه لم يلتزم بترتيب معجمي مضبوط، فوقع في الخلط وعدم التنظيم. هذا الخلط يتضح مثلاً في الأسماء التي تبدأ بالعين أو القاف أو بالميم وهي ترِد بعد الأسماء التي تبدأ بالألف لكنها تتقدم الأسماء التي تبدأ بـ(ابن). ولعل من أسباب ذلك هو طبيعة الأسماء التي قد ترد في أكثر من صيغة بناءً على اللقب العائلي أو النسبة إلى المنطقة أو البطن أو العرق (كالشاوي) أو المذهب(التوحيدي) أو اسم الشهرة.
- **منهجه في جمع المادة وتصنيفها:** قام أبو القاسم الحفناوي من خلال عمله بجمع بيانات ومعلومات موثّقة، وأحيانًا رقمية تحصّل عليها بطرائق مختلفة ومتعددة وهي بيانات ومعلومات أساسية، كونها من الأعداد المجمّعة على شكل جداول إحصائية بالإشارة إلى متغيرات معيّنة فيرقى هذا العمل إلى مستوى النظرية من خلال الربط بين أجزائها أو مقارنتها أو تقويمها، وهذا ما يحصل في الوقت المعاصر في مجال البحث العلمي الرصين.
- **منهجه في تركيب المادة ونقدها:** من مميزات منهج الحفناوي في هذا الكتاب هو التزامه بالأمانة العلمية وعدم التصرف فيها بالزيادة أو النقصان، وكذا توخي العرض المحايد لها، مع الإحالة على المصادر الأصلية التي أخذ منها، مهما كان حجم المقتبس منها، وتجده دوماً يحدد بداية الاقتباس بعبارة «حدثني....» وينبّه إلى انتهائه بعبارة (انتهى أو أ.هـ). وفي ذلك يقول: «هذا ما وجدته في كتب من أشرت إليهم في المقدمة، وكله منقول منها بالحرف، ولم أتصرف فيه بزيادة أو نقص إلا قليلاً، والقليل الزائد نسبته إلى قائله إن كان منقولاً وقد أدرجت تراجم بعضهم في هذا المجموع، وفي المدرسة الثعالبية تذكارًا وشكراً»[22]. ويذكر الحفناوي للتدليل على أمانته العلمية أنه كان يعاني من التصحيح والتثبت عندما ذكر ترجمة المديوني قصيدة لابن الخطيب: «وقد قاسيت من النصب في تصحيح هذه

الصفحات المنقولة من نسخة «البستان»، ما إن مثله ليعجز عنه الضعيف مثلي ولكني استعنت بالله تعالى في تصويب ما حرَّفه المحرفون، عفا الله عنَّا وعنهم»[23]. وهناك دلائل كثيرة على أمانة الحفناوي في تركيب ونقد المادة الخبرية التي أتى بها، ومن مميزات منهجه عدم التزام التسلسل التاريخي، حيث لا يتوخى المؤلف التسلسل التاريخي في الاستفادة من المصادر وهو ما يسمى بتنظيم المصادر التاريخية تنظيمًا كرونولوجيًا[24] فلا يرتب المراجع التي يقتبس منها تراجمه ابتداءً من الأقدم ثم الذي يليه وهكذا؛ بل إنه كثيرًا ما يقلب الوضع فيبدأ بالمرجع الأحدث ثم يعود لينقل عن الذي سبقه ثم عن الأقدم دون أن يرى في ذلك إخلالاً بقواعد الكتابة التاريخية، كما فعل حينما ترجم لأحمد بابا التنبكتي، حيث اقتبس ما كتبه عنه القادري في «نشر المثاني» وهو من أهل القرن الثامن عشر الميلادي، ثم عاد لينقل ما جاء في كتاب اليفرني وهو من كتّاب القرن السابع عشر، وكذلك الحال حينما ترجم لابن قنفذ القسنطيني حيث بدأ بذكر المعلومات التي وجدها في «البستان» لابن مريم وهو من أهل القرن السادس عشر الميلادي، ثم أتبعها بما كتبه عنه أحمد بابا التنبكتي في «نيل الابتهاج»، وهو من أهل القرن الخامس عشر.

كما أن هناك تباين بيّن واختلاف كبير بين أحجام التراجم، فبعضها يستغرق صفحات عديدة قد تتجاوز العشرة كما هو الحال في ترجمة أحمد بن أبي حجلة التلمساني، وسعيد بن أحمد المقَّري، وبن الشريف التلمساني ومحمد بن عبد الرحمان الأزهري وغيرهم، وبعضها الآخر لا يتعدى سطرًا أو سطرين مثل ترجمة علي بن محمد الصنهاجي ومحمد الحفصي القسنطيني وأحمد بن قاسم العقباني وغيرهم. وهناك من التراجم من يكتفي فيها بذكر الاسم فقط دون أية معلومات أخرى، بل إنه في بعض الحالات يورد اسم المترجم له مجردًا عن أية بيانات، ويتبعه بقصيدة يقول إنها من نظمه، وإنه لم يجد له من الآثار سوى هذه الأبيات.

ويكتفي في أحيان أخرى بإثبات قائمة طويلة لعلماء منطقة معينة دون شرح أو بيان، كما فعل مع أعيان مدينة الأغواط وأعيان منطقة غريس، ومع قائمة العلماء الجزائريين التي زوده بها الشيخ علي بن الحاج موسى قيّم الروضة الثعالبية، وهي تحتوي بالإضافة إلى أسماء بعض مشاهير العلماء طائفة من المفاتي الحنفية والمالكية الذين تولوا منصب الإفتاء بمدينة الجزائر[25]. ولعل في هذا التباين في أحجام التراجم، وفي اعتذار المؤلف عن قلّة المعلومات أو انعدامها، وفي إصراره على إثبات هذه الأسماء في متن الكتاب؛ ما يدل على الجهود الجبارة التي بذلها ليجمع شتات ما تفرق من أعلام الجزائر، ويدل عليهم ولو كان ذلك بذكر الاسم فقط حتى لا يضيع ذكر هذا العالم أو ذاك، فربما جاء بعده من هو أقدر على جمع المصادر التي لم يتمكن من العثور عليها فيُكمل ما نقص منها، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته فقال: «لهذا السبب(أي ندرة المصادر) لم أقف على تراجم علماء أشاهر كالرماصي والأخضري وغيرهما، ولا يسعني تجاوزهم فأذكرهم بما أعلمه وإن قلّ، فعذراً يا أهل الإطلاع وطول الباع عذرًا لمن لم يساعده الحال على ذكر آباء، أحياء في الأوراق، أموات في الآفاق»[26].

● **ولائه المفرط للطرقية ومبادئها (تفكيرًا وكتابة)**:ومما نلاحظه على كتابه استعمال السجع المفرط مع بساطة في الأسلوب، ووضوح الأفكار وغزارة المعارف خصوصًا الأدبية وقوة الحجة؛ غير أن شواهده كثيرة وطويلة،

كما أن ولائه المفرط للطرق الصوفية ومبادئها وشيوخها كان بارزاً في ثنايا كتابه وهو ما أفقد من حيث منهجية الكتابة والبحث روح النقد والاستنتاج[27]. فهو يغرق في ذكر الكرامات الخارقة التي تصل حد المعجزة من غير تمييز عقلي أو منطقي، بل أنك تجد كرامة واحدة تُنسب إلى كم من شيخ، ككرامة الحديث إلى الحيوانات التي نسبها في ذات المؤلَّف إلى عدد من الشخصيات المترجمة من غير تمحيص، ومنها أيضًا حادثة معاقبة الشيخ لأحد الأسود فهذه لوحدها نسبها في كتابه إلى ثلاثة شيوخ مترجم لهم في الكتاب وصاغها بنفس الأسلوب واللغة تقريباً مع تغيير في اسم صاحب الكرامة، ومنها أيضًا حادثة السفر إلى مكة جواً عن طريق إحدى جناحي برنوس الشيخ الوليّ، فهذه الأخرى نسبها إلى شيخين من المترجم لهم.

وإذا التمسنا له العذر في عدم قدرته على التصرف في هذه النصوص بالحذف، فإنه كان بإمكانه أن يُعلّق في المتن أو يُنبه في الهامش إلى خطأ ما ذهب إليه القدماء من اعتقاد النفع والضر في الشيوخ، وما يترتب عن ذلك من فساد في العقيدة وإشراك بالله[28]. غير أن الذي يبدو لنا أن الحفناوي نفسه كان مصدقًا لكل ذلك، مؤمنًا به، وقلبه ينطوي على رهبة كبيرة من سطوة هؤلاء الأولياء ونفوذهم الروحي، ولديه اعتقاد جازم في أعماقه بقدرتهم على التصرف في الكائنات، وتعطيل النواميس الطبيعية وتجاوزها ويدل على ذلك ما دوَّنه حين زار مدينة بجاية وتحدَّث بكثير من الإجلال عن وليّها الصالح أحمد بن معمر البجائي الذي يقول عنه: «من زار بجاية ولم يزره لم يذهب بشيء منها والعياذ بالله... فالحذر الحذر، والأدب الأدب»[29]، والأمر نفسه عن رجال النخلة المدفونين في مسجد الخمسين[30]، كما كان لا ينسى أن يعقب دائمًا على كرامات الأولياء بقوله: «نفعنا الله بهم-آمين».

- **لغته وبيانه في الكتابة:**

إن كتاب «تعريف الخلف برجال السلف» يُعد من كنوز اللغة العربية في الجزائر. فعلاوة على ترجمة علماء أجلاّء وأولياء صالحين فضلاء، فقد عرض المؤلف عمل هؤلاء الأولياء والعلماء وذكر جهوده المضنية في الحفاظ على جماليات اللغة العربية، وهو بذلك حقَّق ثلاث غايات في غاية واحدة، كما أن هذا الكتاب يحمل في طياته أسماء وعناوين مئات الكتب والمصنفات في شتى أنواع العلوم الإنسانية والدينية وغيرها، ولم يقف المؤلف عند أسماء هذه الكتب بل غاص في ثنايا نصوصها، كما حافظ هذا الكتاب في مضمونه على لغتنا العربية، حيث حرص مؤلفه على إبراز التراكيب الجميلة والنادرة للغتنا العربية التي قلّما نجد لها نظيراً في اللغات الأخرى.

فأسلوب المؤلف في الكتابة سهل، واضح، صحيح التراكيب، لا يعمد فيه صاحبه إلى السجع إلا في حالات قليلة، مع اعتناء بانتقاء الألفاظ المناسبة، وعدم الإكثار من المقاطع المسجوعة إلا بقدر ما تتطلبه الحاجة، ويبدو ذلك بشكل جلي في مقدمة الكتاب، وفي بعض التعليقات التي يثبتها في ثنايا التراجم. أما ما يزخر به الكتاب من الأساليب القديمة التي تتخذ من السجع منوالاً للتعبير فإنها-في معظمها- اقتباسات ونقول حرفية عن المصادر التي اعتمد عليها كما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

ومن حيث الخطابة والبيان فإن الحفناوي لم يُفارق مقومات الخطابة في تقديم الأعلام والمؤلفات «الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه والتابعين»، وقد كان حبّه خالصًا لله تعالى وليس لمصلحة شخصية، أو ينتظر عطاءً أو جزاءً فنراه يقول: «الأحب في ذات الله تعالى»، وبدايات المؤلف وتقديمه لتراجمه تنمّ عن أدب جمّ ودراية كبيرة بمعجم الألفاظ وتكشف لنا مدى قدرة المؤلف على التنوع بتراكيب الجمل القصيرة والطويلة، وكيف يشتق من اللفظ الواحد أكثر من لفظ.

الاستشهادات:

- **القرآن الكريم:** الشيخ الحفناوي كثير الاستشهاد بآي القرآن الكريم ولا غرو فكلام الله تعالى في المرتبة العليا من حيث قوة الاحتجاج على صحة قول العربي، فلهذا جاء كتابه طافحًا بعدد كبير من الآيات القرآنية الكريمة التي قمنا في إطار التعليق والتحقيق بتخريجها، وقد بلغ مجموع الآيات المستشهد بها **59** آية كريمة (**القسم الأول:** 11 آية– **القسم الثاني:** 48 آية)
- **الحديث النبوي الشريف:** كما احتوى كتاب الحفناوي على مجموعة كبيرة من أحاديث رسول الله ρ، 32 حديثاً (**القسم الأول:** 10 أحاديث نبوية شريفة– **القسم الثاني:**22 حديثاً نبوياً شريفاً).
- **الشعر العربي:** الشيخ الحفناوي كان في (تعريفه) كثير الاستشهاد بالشعر العربي وأفرد له صفحات طوال ضمن تراجمه، ومن كثرتها تحس وكأن كتابه عبارة عن ديوان شعر، بل حتى أن القصائد الشعرية كانت المنقذ له في عدد من التراجم التي شحَّت فيها المعلومات. ويمكن التنبيه إلى مسألة سلبية في هذا الباب وهي أن الشيخ الحفناوي في كثير من استشهاداته الشعرية كان لا يجتهد في نسبها إلى أصحابها وقائليها على الرغم من أن معظمهم ليس مجهولاً، وكان أقل استشهاداته الشعرية بيت أو بيتين وأكثرها بلغ (258 بيتًا شعرياً) عندما ترجم لمحمد بن خميس التلمساني[31]. ثم يليه ما ورد في ترجمة محمد بن علي آبهلول المجاجي(130 بيتاً)، ثم يليه ما ورد في ترجمة والده بن عروس (120 بيتاً)، ثم يليه ما ورد في ترجمة سيدي الغزالي (110 بيتاً) (**القسم الأول:**338 بيتاً شعرياً**– القسم الثاني:** 2159 بيتاً شعرياً).
- **الحكم والأمثال والأقوال السائرة:** إن موسوعية الشيخ الحفناوي سواءً في اللغة العربية أو التراث العربي القديم وحتى الموروث الشعبي الجزائري الأصيل، سمحت له بأن يمسك بزمام إيراد الحِكَم والأمثال والأقوال، وأن يسردها في أوانها مع اقتباس وجه الاعتبار منها، فالحفناوي كان حفَّاظًا لأقوال العلماء وآرائهم ومواقفهم وحتى نوادرهم وقصصهم وكراماتهم... لهذا نجد أن كتابه جاء يعُج عجاً بها، واستند إليها في تقوية أحكامه وتعضيد آرائه وإقناع مخالفيه، وهو في كل ذلك يستميت في نسبها إلى قائليها حتى يعطيها قوة الإقناع والبرهان.

7. نقد الكتاب:

كان الحفناوي كلما يُخاطَب "بصاحب كتاب تعريف الخلف" إلا ويرد على مخاطبيه "بل أنا جامعه"[32]، مما يدل أن الحفناوي لم يرد من كتابه هذا إلا تجميع ما خشي أن يزول ويندثر، والواقع أنه لم يكن يكتب تاريخه في

تراجمه، حتى نحاكمه بقسوة على منهجه، كما فعل سعد الدين بن أبي شنب: «إن التاريخ علم لم يتقدم عنده، وإنه كان يسير على خطى مؤرخي العصور الوسطى»[33]. فإن كان بن أبي شنب يعني بذلك كتب التراجم فهو مصيب في دعواه، وإن كان يعني كتابة التاريخ فالأمر هنا مختلف، حقيقة إن الحفناوي قد ذكر الخرافات لبعض من ترجم لهم، وأكثر من الشعر أحيانًا وتوقف عند نقد المصادر وعدم ترتيبها. ولكن لا حرج على الحفناوي أن يصبح كتابه كتاب أدب بدل أن يكون كتاب تاريخ لأن الترجمة كانت وما تزال تجمع بين الحقلين (الأدب والتاريخ) إضافة إلى علوم أخرى، وتعريف الخلف له ميزة بارزة انفرد بها، وهي أنه ظهر في وقت لم يتقدمه عمل آخر، ثم أنه ظل على أهميته إلى الآن، فإن المؤلفات التي ظهرت بعده كلها تقريبًا تتخذه مرجعًا، ولعل ذلك راجع أيضًا إلى شموله لكافة العصور ونُقوله العديدة من مؤلفات ووثائق تعتبر الآن في حكم المفقودة.

كما أن لغة الكتاب جاءت سهلة فلا يجد قارئه عناءً في الوصول إلى المعنى المراد، وتداخل المعلومات أحيانًا ووجود الخرافة في الكتاب يشفع له ما يقدمه من مادة ذات قيمة كبيرة، ورغم أن النية – نية الإدارة الفرنسية- كانت عندئذ هي المحافظة على طابع الجزائر الإسلامية- الفرنسية فإن النتيجة كانت عكس ما توقعوه. فقد بعث تعريف الخلف في النفوس الحميّة الوطنية، والغيرة على التراث، والاعتزاز بالآباء والأجداد، ويمكن اعتبار ظهوره صفحة جديدة في اليقظة والشعور بالذات السياسية، سيّما في الوقت الذي كانت فيه مدرسة النخبة المتفرنسة تدعو إلى الاندماج الكلي في فرنسا، والتخلص من كل روابط الماضي.

- **توظيفه لعبارات التهليل والسجع**: من مثل: «أدام الله بهجتك، وحرس من كل مكروه مهجتك»، «العلامة المحقق الحافظ، والبحر الجامع المتدفّق اللافظ»، «له بركات ظاهرة وأموال باهرة، وأسرار مشتهرة...» وهي كثيرة، وهذا يدل على الرصيد المعرفي واللغوي الذي يحمله فكر الحفناوي من مسايرة الوضع اللغوي الذي كان سائدًا في عصره؛ حيث يطغى أسلوب التهليل والسجع خاصة في الافتتاحيات أو في المقدمات أو في المراثي والمدائح. ومحصلة القول: إن أسلوب الحفناوي كان ينطلق بلغة العصر، وهذا بعدما تمثّلها وصوّرها ونقلها في أمثلتها الواقعية، وكأنك تقرأ أساليب أو مصطلحات القرن التاسع عشر، ويتمثل ذلك في توظيفه عبارات: نزيل وهران، دفين تلمسان، خاتمة الصالحين، والفرنسوية، دفين نفطة، العلامة الفهامة الولي الهمام... [34].
- **استعماله ا.هـ في نهاية القول المقتبس**: وهذا يعني أن النص المعتمد عليه لم يتجاوز هذا النقل، فأبى أن يتصرف بالزيادة أو بالنقص، ويدخل هذا العمل في الأمانة العلمية التي نوصي بها طلابنا في الاقتباس الحرفي الذي لا يجب أن يخضع للتصرّف مهما خالف رأي الباحث. ومن ثم يجوز للباحث أن ينتقد النص المقتبس أو يصحح ما يراه خاطئًا أو زائدًا بوضعه بين معكوفتين[ ].
- **منهجه البيبليوغرافي**: إن هذا العمل يدخل في ميدان السيرة Biographie وليس السيرة الذاتية Autobiographie فهو لم يتكلم عن حياته أبدًا إلا في إشارات هامشية مباشرة، أو باستنتاجها من محتوى يتحدث فيه عن بعض أفراد عائلته، أو أهل بلدته، أو بعض أصدقائه...، كما يختلف عن المذكرات أو اليوميات،

رغم أنه تحدّث عن حياة بعض أفراد أسرته، وغرضه في ذلك إحياء سيرة شخصيات قريته؛ وبالخصوص أهله الذين قدّموا خدمات معتبرة للعلم، وبهذا العمل نرى الحفناوي يكتب في الجنس الأدبي لقصّ ترجمات الأشخاص، يسمى فن السير، أو فن ترجمة السير[35]، وتتعلق مراجع هذه الأعمال بالعودة إلى المصادر والدلائل مكتوبة كانت أو شفاهية أم مصوّرة، أو اعتمادًا على الذاكرة.

إن طريقة الحفناوي في الترجمة كانت تشبه إلى حد بعيد بعد حذف السند عنها طريقة الأقدمين، فهي عبارة عن سرد مع وصف لحياة المترجم له، يعمد فيها كثيرًا إلى السجع الممل أحيانًا، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمي في البحث والدراسة فهو يقتبس الأخبار من كتب سابقيه تارة بالنقل الحرفي من دون أي تصرف أو تعديل، وتارة أخرى بتصرف طفيف كالاختصار وهي حالة قليلة الحدوث فنجد عبارة ملخصًا من [الورتيلاني أو المشرفي أو الجبرتي] خصوصًا في القسم الثاني[36]، وكم هي الحالات كثيرة التي يورد فيها أخبارًا ومعلوماتاً تتناقض مع العقل والمنطق أو يسرد أحداثًا لا توافقها الحقيقة التاريخية. ورغم ذلك لا يتدخل فيها سواء بالتنبيه لها أو التحفظ منها وتعديلها. ويحدث أن تكون الرواية نفسها لفظًا ومعنى، مما يجعل القارئ يحس أن الحفناوي يكدّس فقط من دون تمحيص أو مراجعة.

ومما يؤاخذ عليه منهجيًا بالإضافة إلى ما سبق هو أنه كان في الأغلب لا ينتقد ولا يُعلق على الأخبار التي يأتي بها، وإن كانت تتضمن في ثناياها حتى شركًا وكفرًا بالله، كتلك الشهادات التي يصف بها المريدون مقدميهم المترجم لهم. فقد نعتوهم بالعصمة والشفاعة وغيرها من صفات الأنبياء والملائكة فقط، وحتى وإن صدقنا حكم الأستاذ أبو القاسم سعد الله فيه بأن الحفناوي كان يفعل ذلك تقية لا قناعة بها، فإنه منهجيًا لا يمكن تقبُّل مثل هذه الخزعبلات بالعقل والمنطق قبل الشرع والعقيدة، ومن المعجزات التي نسبها أو أكد بروايته لها نسبتها إلى المترجم له، هو أن العالم سيدي يحي العبدلي دفين بجاية استطاع أن يُحيّ ثوراً بعد أن كان قطعًا متناثرة من العظام، وبهذا يمكن القول بأن الأسطورة لم تجد لديه أي نقد يذكر[37].

كما يؤاخذ عليه أيضًا الذكر المبالغ فيه للأشعار في كثير من التراجم خصوصاً إذا كانت لا تخدم الغرض المقصود منها فأحياناً يحس القارئ وكأن الحفناوي يدس قصائده التي يحفظها حشواً أو استعراضًا ولاسيما تلك التي قيلت في المناسبات العامة ويتكرر ذلك خصوصًا في القسم الثاني من الكتاب، فتجده يسرد كل ما جُمع بين يديه واستدركته حافظته الشعرية، وهو ما جعل أحد المهتمين به يقول: «إن كثرة ذكره لها تكاد تجعل من هذا الكتاب التاريخي موسوعة أدبية وشعرية».

ومن عيوب هذا العمل المنجز هو التكرار وإيراد ذات الرواية في كم من موضع، بل حتى ذكر ترجمة واحدة لشخصيتين مثلما ورد في القسم الثاني من الكتاب عند ترجمة محمد بن محمد التنبكتي[38]، وكذا الشيخ محمد بن محمد التنبكتي الآخر[39]، ومحمد بن محمود الوانوغي[40]، والعجيب أن ترجمتهما تمّ اقتباسها من مصدر واحد وهو «كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج» لأحمد بابا التنبكتي، كما ورد في عدد كبير من التراجم تكرار متعمد لعدة

قصص وطرف وقصائد شعرية أو روايات من الأثر.. وقد نجد لذلك مبررًا للشيخ الحفناوي، فربما كثرة انشغالاته (التحرير الصحفي والتدريس والتأليف والترجمة..) أو ابتعاده عن تدوين كتابه فترة طويلة جعله يفقد التركيز وبالتالي يُكرر المعلومات السابقة مع سهو في نسبة مصدر هذه الروايات إلى أصحابها، كما يُعاب عليه أيضًا استناده إلى أحاديث ضعيفة السند ولم يُكلف نفسه حتى من التثبت من بعضها هل هي أحاديث نبوية شريف أم قول مأثور مثل قوله: أن رسول الله ρ قال: «إذا رأى العالم منكراً ولم يغيّر فعليه لعنة الله»[41]، وهو قول لم أجد له أي سند في كل كتب الصحاح أو عند رواة الحديث.

كما يتميز كتابه بكثرة الاستطراد والإسهاب في نقل المعلومات المتوفرة عن شخصية ما حتى تخرج عن الغاية، ويذهب المؤلف إلى التفصيل في أحداث ومواضيع لا علاقة لها بحياة المترجم له، وقد ينقل من مصدرين مختلفين معلومات متشابهة بحيث نجد المادة نفسها مكررة غير أنها مأخوذة من مراجع متنوعة، وفي هذا الإطار تأتي القصائد الكثيرة والطويلة التي أوردها المؤلف في كتابه، والتي كثيرًا ما تكون بعيدة الصلة عن موضوع الترجمة، وتُعد ظاهرة بارزة لدى الكتاب مثل قصائد الغزل التي نقلها لمحمد بن أحمد الجزائري[42]، وسبع قصائد كاملة لابن خميس أقلها تبلغ أبياتها 12 بيتًا، وأطولها تجاوزت تسعة وسبعين بيتًا[43]، وقصيدة لسعيد قدورة في رثاء شيخه محمد بن علي أبهلول المجاجي بلغت أربعة وخمسين بيتًا، أتبعها بقصيدة أخرى في الزهد لمحمد بن علي المجاجي ابن المترجم له بلغت اثنين وثلاثين بيتًا[44].

ومن مظاهر هذا الاستطراد أنه كان يفرد لها حيزاً معتبراً داخل الترجمة، وفي كثير من الأحيان يكون محتوى هذا الحيّز لا علاقة له بالشخص المترجَم له، وفي كل مرة يُطلق عليها تسمية معينة على شاكلة (فائدة، طرفة، انعطاف، تنبيه، لطيفة). كما تضمَّن كتابه عبارات مكررة في طول الكتاب بجزئيه، شكّلت لازمة أكيدة في نهاية كل ترجمة أو فقرة على منوال (ولولا الإطالة لذكرت).

ومن عيوب هذا العمل أيضاً عدم التثبت من معلوماته التاريخية حتى وإن تناقضت مع معلومات أخرى كان قد سردها في ترجمة أخرى.. فقد ذكر في القسم الثاني من كتابه أن محمد بن علي أبهلول قد توفي سنة 1002هـ[45]. وهو في نظرنا خطأ على حسب ما تم ذكره في عدد من المصادر الموثوقة كـ«كعبة الطائفين» لابن سليمان[46]. وكثيرًا ما كان الحفناوي يُخصص صفحات عديدة لفقيه أو أديب ترجم له، وفي نفس الوقت نراه يُفرد سطرًا أو سطرين لمترجم يليه، وإذا أخذنا من باب التبرير له يمكن القول: أن ذلك ربما يعود إلى أهمية الشخصية التي يُترجم لها في نظره، أو لغزارة المعلومات التي وجدها عنه، مما يجعلنا في النهاية نخمن أن الحفناوي في أسفاره لم يكن يملك قائمة اسمية منفردة لكل من يريد الترجمة له، والأمر نفسه فيما يتعلق بمراسلاته ومقابلاته، بل أنه قام بتجميع الكتب والمؤلفات والتراجم أولاً ثم انعزل في كتابتها رغم أن المنهج البحثي في العلوم الإنسانية يُقر غير ذلك، أو يمكن القول أن الحفناوي كان في عجلة من أمره في استصدار القسم الثاني لأن هذا التفاوت لم نلحظه بشكل كبير إلا في القسم الثاني، خصوصًا إذا علمنا أنه في نفس الوقت الذي انشغل فيه بتحرير هذا الجزء كان يعيش انشغالات

أخرى شكّلت مرحلة الأوج في حياته العلمية والتأليفية، حيث أصدر اشتراكًا خلال تلك الفترة بالذات مع جان ميرانت الترجمة العربية لكتاب الطبيب العسكري "دركل" «الخبر المنتشر» يُضاف إليها مهامه الأخرى في جريدة "المبشر" والمدرسة الشرعية والجامع الكبير.

إن الكتاب دراسة وصفية تاريخية صادقة دالة على رسوخ علم الحفناوي واتساع نبوغه، فقد كان ثقة مأمونًا على ما قيّد وروى، ونقّل وضَبط، فهو عمل موسوعي متخصص يُعدّ من أمهات المصادر التي يحتفي بها تراثنا، إلا أنه لا نعدم عمله النقصان ولذا نجد غياب صفة الخيال الأدبي، على أن أمثال هذه الأعمال لا تخرج من ظاهرة الأدب، فتراجم السيّر أو السيرة الذاتية بصفة عامة تقرب إلى الخيال وإلى الرواية؛ حيث لم نرَ الترجمة تتحرك وفق أبعاد فوتوغرافية، بل نقرأ أحاديث المقرّبين أو الأصحاب في صور لها البعد السطحي المعروف الذي يفهمه العام والخاص، فغاب الرمز والتواصل الجمالي وهذا الناقص في هذا العمل، ووفق الذي قلته أرى العمل بنية مغلقة في اتجاه سرد حدث، فهو لا يمتد في المستقبل، ويمكن أن يعد البعض هذا العمل مدوّنة تاريخية لا غير[47].

لقد خاض الشيخ الحفناوي في صناعة غير متقدمة في عصره، لكنه حاول أن يقلّد السلف من أمثال: بن هشام، بن خلكان، المقّري،... وغيرهم من جمّاع السير، فكان في كثير من الأحيان مصورًا لا مجددًا، تابعًا لا مبدعًا، فعمله الجيد كان يمكن أن يوضع في إطار عصره، بحرفية جديدة تبعده عن التقليد، وذلك من خلال النقد لمساوئ القول ومحاسنه، ووضع القاموس على شكل معجم تعريفي للأعلام يدخل به صناعة المعاجم Lexicographie حيث كان البحث المعجمي متطورًا بعض الشيء، ومع قلّة الزاد نعذر الشيخ، فيكفيه أنه قدّم عملاً تأسيسياً رغم ما يشوبه من نقائص يمكن استدراكها من قبل الباحثين المعاصرين وكذلك نجد في كل علم ما هو متقدم أو ضعيف أو قوي...

ونجد عدم التمييز الدقيق بين Biographie والسيرة الذاتية Autobiographie وبين كتابة المذكراتMémoires واليوميات Journals ، ويفترض أن تظهر العلاقات القائمة بينهما، والفروق التي تفصلها، ومن ذلك أن يكون هناك انتقاء للأحداث، ويتعامل مع السير Biographie التي تعبّر عن مجتمع متحرك، فيحاول البحث عن هوية داخلية للمجتمع، يؤطرها الجانب الإنساني، رغم ما يمكن أن نقرّ به بأن السيرة أحياناً تتداخل مع التاريخ، ولكن التاريخ يتميّز بأنه يتكلم عن مؤسسات وحضارات ومجتمعات، فالأنا لا تمثل إلا نقطة صغيرة في البحر الكبير.

وفي الختام يمكن القول أن منهج الحفناوي في تأليف الكتاب ارتكز على جملة أساسيات هي:

- غياب النقد والتحليل، فكأنك تقرأ مرويات واقعية دون إضافة وتحليل، ومن صفات أدب السير أن يتعرض ناقلها لبعض النقد بعد الوصف، وأن يكون سرده ميالاً إلى التشويق.
- غياب المنهج العلمي الصارم الذي يتطلب التهميش والتثبّت والإسناد، وهذا ما لم يظهر خاصة في القسم الثاني، على اعتبار أن القسم الأول وثّقه جيّدًا.

●العفوية في بعض النقول، والانطباع الذاتي والسرد السطحي للأحداث وفق مرويات شعبية، في غياب الدليل الملموس للذين نَقل عنهم، وعدم العمل بقضية كان القدامى يستعملونها وهي: مسألة الجرح والتعديل في شروط الراوي، لأن بعض الأحداث هي أقوال شعبية يراد بها الطعن، فنقلها الشيخ دون التحرّج منها.

●اعتمد الحفناوي طوال تراجمه على خطة منهجية واحدة، تبدأ بذكر المولد وتاريخه ثم الوفاة، ثم ذكر نشأته العلمية المؤلفات وسمعة المترجَم له أو وظائفه، ثم قراءاته وشيوخه، ثم مذهبه وعاداته وبعض أخباره ثم يختمها بأهم ما قيل فيه طال أم قصُر.

●ومما يلاحظ في كتابه هذا هو أن الحفناوي حاول جاهداً أن لا يتورط في القضايا السياسية والدينية المتعارضة مع توجهات النظام الاستعماري القائم حينها، والراجح أن ذلك كان بتوجيهات دقيقة وصارمة من الإدارة الفرنسية، وأقرب ممثل لها يعلم بأمر هذا الكتاب كان هو شيخه "آرنو". فهذه التوجيهات –إن صحت هذه الرواية– فرضت أسماء معينة دون غيرها حتى تتم لهم الترجمة، جعلت الحفناوي يُهمل بعض الشخصيات العلمية والسياسية المهمة في تاريخ الجزائر الحديثة، وحتى وإن حاول الحفناوي ذكر بعضها فإنه تحاشى ذكر ما كان بينها وبين الإدارة الاستعمارية، ورد فعل هذه الأخيرة عليه، وراح يذكر جوانب أخرى في حياة المترجم له، متجاوزًا الحديث عن مصطلحات الثورة والمقاومة كما حدث في ترجمته للأمير عبد القادر. أين كانت تراجمه في الأغلب قصيرة.

●أن الحفناوي كان يمتلك ثروة مصدرية هائلة توفرت له قبل تأليف الكتاب، لكن عدم امتلاكه لمنهج علمي محدد في البحث والتركيب أحال كتابه إلى هذه الصورة من العيوب المنهجية. أما من حيث اللغة المدونة.. فنجد أن الحفناوي وبالنظر إلى رصيده اللغوي الضخم وجد فرصته في هذا الكتاب، فراح يستعرض هذا الرصيد. وبصرف النظر عن الفائدة اللغوية الكبيرة التي أتاحها لأهل اللغة والنحو، فإنه من الناحية المنهجية أحال الكتاب إلى جملة من الاستطرادات والمبالغات سواء في الوصف أو التقريظ.

●إن الحفناوي لم يذكر الترجمة مجردة عن أحداث عصرها، ذلك أننا نستطيع أن نعثر في تراجمه على مجموعة من الأخبار التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتعلقة بالجزائر (المغرب الأوسط) بصفة عامة وبعض المدن والبلدات التي وُلد أو نشأ أو تعلم فيها المتَرْجَم لهم، ناهيك عن أنه يُعطيك صورة مكبرة عن الحالة التعليمية والإصدارات التأليفية والمعاهد والزوايا التعليمية الظروف الدينية والروحية...كما أن النماذج الشعرية والنثرية التي وظفها الحفناوي في كتابه تعتبر ثروة لغوية ونحوية وبلاغية ليست بالهيّنة، حافظ عليها ومنع عنها الاندثار والزوال.

● إن الحفناوي بكتابه أعطى الصورة الجلية للحياة العقلية للجزائر عبر عصور مترامية.

وفي الأخير يمكن القول أن الحفناوي حاول قدر المستطاع رغم كل ارتباطاته العلمية والمهنية أن يُخرج عملاً ضخمًا وأن يأتي على أغلب رجال السلف في الجزائر، لكن العوامل نفسها مع ضيق وقته أصلاً جعلت هذا العمل يغرق في أخطاء منهجية وتقنية عديدة.

الهوامش:

1. وثيقة حصلنا عليها من الأستاذ المدني بن عبد الرحمان.

2. الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيير فونتانة، الجزائر، 1908م، ص8.

3. زرمان (محمد)، أبو القاسم الحفناوي وكتابه: تعريف الخلف برجال السلف، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع28، ملحق ديسمبر 2001م، عمادة البحث العلمي- الجامعة الأردنية، الأردن, 1997م.«رسالة خاصة وليس من المجلة الأصل»..

4. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2009م ص 580.

5. Dépond et coppolani :les confréries religieuses musulmanes, Jourdan 1893 ; p27

6. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي،ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م ، ص432.

7. الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص6.

8. نفسه، ج1، ص6.

9. الجيلالي (عبد الرحمن) ، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م ، ج4، ص427.

10. سعد الله (أبو القاسم)، بحوث في تاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003 م ، ص 77.

11. سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية بالجزائر في نصف الأول من القرن 14ه"، مجلة كلية الآداب، ع1، الجزائر: 1964،، ص49.

12. بقطاش خديجة،"أبو القاسم الحفناوي وكتابه تعريف الخلف برجال السلف"، الأصالة، س6، ع51، الجزائر: نوفمبر 1977، ص55.

13. بن قينة(عمر)، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 1993م ، ص 130.

14. بن أبي شنب،" النهضة"، ص. ص(49-50).

15. التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط1، 1989، ص20.

16. الغبريني، عنوان الدراية، تح. عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979، ص8.

17. للتوسع في بقية مصادر الحفناوي في تأليف كتابه راجع:-تحقيقنا للكتاب: الصادر عن دار كردادة، الجزائر، 2011م.

18. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص 582.
19. نفسه، ج2، ص 568
20. نفسه.
21. نفسه، ج1، ص6.
22. الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص 201.
23. نفسه، ج1، ص 153.
24. ابن أبي شنب(سعد الدين)، "نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين للجزائر"، المجلة الإفريقية، 1956، ص 478.
25. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص ص(476-477).
26. نفسه، ج1، ص 9.
27. الجيلالي، المصدر السابق، ج4، ص 432.
28. زرمان، المرجع السابق.
29. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص 83.
30. نفسه، ص 84.
31. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص.ص(366-387).
32. المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح (مذكرات)،ج2، (1905–1925)، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976م ص 76.
33. ابن أبي شنب، "النهضة"، ص51.
34. نفسه.
35. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص 134.
36. ابن أبي شنب، النهضة، ص 49.
37. بن أبي شنب، "النهضة"، ص. ص(478-479). الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص589.
38. نفسه، ج2، ص 508.
39. نفسه، ج2، ص 510.
40. نفسه، ج2، ص 512.
41. نفسه، ج2، ص 79.
42. نفسه، ج2، ص 357.
43. نفسه، ج2، ص. ص (379-383).
44. نفسه، ج2، ص. ص(442- 448).

45. نفسه ، ج2، ص 432. راجع أيضا: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 359. نويهض (عادل): معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م ، ص286.

46. نفسه، ج2، ص 111.

47. بلعيد (صالح)، الشيخ الحفناوي وكتابه، ندوة وطنية حول الشيخ الحفناوي، الديس: 2006/07/4.